د. شكري عياد

صيغة التفضيل في شعر المتنبي

هذه محاولة لدراسة اسلوبية في شعر المتنبي ،ارجو ان اصل من خلالها الى فهم ادق لرؤيته الشعرية ، كما هو الشأن في الدراسات الاسلوبية المعاصرة .

يبدأ الباحث الاسلوبي عادة بملاحظة ظاهرة تستلفت النظر في لغة الشاعر ، اما لالحاحه على لفظ معين او تركيب معين ، بحيث يرد في شعره بنسبة اكبر من وروده عند سابقيه او معاصريه او التالين له واما لانه يخرج عن الطريقة المألوفة في التعبير عن معنى معين ، فيكون لاختلاف الصياغة في هذه الحالة دلالته على اختلاف المضمون ، فالفروق الكمية او الكيفية في لغة الشاعر هي نقطة البدء في كل دراسة اسلوبية .

واذا كانت الدراسة قائمة على فروق كمية فلا بد من ان تستند الملاحظة الى قدر من الاحصاء يدعم صحتها، ثم تدخل الملاحظات الكيفية لتعطي ـ الملاحظة الكمية دلالتها ، والا بقي الاحصاء بدون قيمة في فهم رؤية الشاعر .

وحين استرعى نظري شيوع صيغة التفضيل في شعر المتنبي ، رأيت من الضروري قبل ان اتقدم خطوة اخرى في البحث ، ان اتثبت من وجود فرق كمي بارز بين استعماله واستعمال غيره لهذه الصيغة . فقمت باحصاء اولي قارنت فيه بين عدد المرات التي يستخدم فيها المتنبي هذا الاسلوب في عدد معين من الابيات ،وعدد المرات التي يستخدم فيها شعراء اخرون الاسلوب نفسه في عدد مماثل من الابيات . وكان من الضروري ،في بحث اولي كهذا ، ان اقتصر على مجموعة غير منتقاة من القصائد لكل واحد من هؤلاء الشعراء ، والتزمت قالب القصيدة حيث انها تمثل لدى الشعراء العرب شكلا شعريا كامل الصيغة ، اذا قيست بالمقطوعة التي كثيرا ما تقال عفو الساعة ، فتكون دلالتها على فن الشاعر، وهوالذي نقصد اليه بالبحث ، دلالة ضعيفة .

وهذه نتيجة الاحصاء الاولي الذي قمت به ، وهي تبين نسبة ورود صيغة التفضيل لدى المتنبي الى ورودها عند عدد من الشعراء السابقين عليه والتاليين له ومع ان الاحصاء غير مستوعب كما سبق القول ، فان الفرق الكبير في هذه النسبة يطمئننا الى صحة ملاحظتنا :

المتنبي	١٣	ابن الرومي	٣
زهير بن ابي سلمى	٢	الشريف الرضي	٧
بشار بن برد	٢	ابن دراج القسطلي	٣
مسلم بن الوليد	١	المعري	٦
ابو تمام	٨	الابيوردي	٢

وينبهنا هذا الاحصاء الى نقاط مهمة تستحق مواصلة البحث فيها وان كانت خارجة عن نطاق بحثنا الحالي .

١ ـ ان الاكثار من استعمال صيغة التفضيل لا يظهر الا ابتداء من ابي تمام .

٢ ـ ان مسلم بن الوليد قلما يستعمل صيغة التفضيل على خلاف ابي تمام . فاذا كان ابو تمام قد تأثر خطى مسلم ، كما يذهب ابن المعتز ، ففي بعض الجوانب منه دون بعض . وعلى العموم فان القرابة الفنية بين المتنبي وابي تمام هي على الارجح اشد منها بين ابي تمام ومسلم .

٣ ـ يبدو ان هذه الظاهرة الاسلوبية تتوقف على طريقة الشاعر او مذهبه الفني اكثر مما تتوقف على عصره . فالابيوردي في القرن السادس يناظر بشار بن برد في القرن الثاني وزهير بن ابي سلمى في القرن الاول قبل الاسلام في قلة استعمال صيغة التفضيل ، ومسلم بن الوليد في القرن الثاني هو اقل الجميع استعمالا له .

لننظر الان في استعمال صيغة التفضيل عند المتنبي ودلالتها على رؤيته الشعرية .

اذا تجاوزنا النسبة العددية الى وضع اسم التفضيل في القصيدة الذي يمكن ان يدل على وظيفة ، بدهتنا ملاحظتان :

اولاهما كثرة استعمال المتنبي لاسم التفضيل في مطالع القصائد ، كثرة لا يضاهيه او يدانيه فيها شاعر اخر .

فمن قصائده الاولى :

اهلا بدار سباك اغيدها ... ابعد ما بان عنك خردها
كفي أراني ويك لومك الوما ... هم اقام على فواد انجما
احياوايسر ما قاسيت ماقتلا ... والبين جارعلى ضعفي وماعدلا
ضيف الم براسي غير محتشم ... والسيف احسن فعلا منه باللمم
احق عاف بدمعك الهمم ... احدث شيء عهدا بها القدم
نرى عظما بالصد والبين اعظم ... ونتهم الواشين والدمع منهم
ابعد نأي المليحة البخل ... في البعد مالا تكلف الابل
الحب ما منع الكلام الالسنا ... والذ شكوى عاشق ما أعلنا
ضروب الناس عشاق ضروبا ... فاعذرهم اشفهم حبيبا
اقل فعالي بله اكثره مجد ... وذا الجد فيه، نلت اولم أنل، جد
افاضل الناس اغراض لذا الزمن ... يخلو من الهم اخلاهم من الفطن

وتقل هذه الظاهرة شيئا ما في السيفيات، ولكنها لا تزال لافتة للنظر :

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه ... بان تسعدا ، والدمع اشفاه ساجمه
اعلى الممالك ما يبنى على الاسل ... والطعن عند محبيهن كالقبل
ما سدكت علة بمورود ... اكرم من تغلب بن داود
القلب اعلم يا عذول بدائه ... واحق منك بجفنه وبمائه
غيري باكثر هذا الناس ينخدع ... ان قاتلوا جبنوا او حدثوا شجعوا
يا اخت خير اخ، يابنت خير اب ... كناية بهما عن اشرف النسب

وكان ابتداء القصيدة باسم تفضيل كان لازمة من لوازم المتنبي اتجه نحو التقليل منها ، حتى اننا لا نجد في قصائده المصريات الاربع عشرة الا قصيدتين يتضمن مطلع كل منهما اسم تفضيل ، اما عضدياته السبع فقد خلت مطالعها من اسم التفضيل بته . وهذه الملاحظة لا تصدق على المطالع وحدها ، فاذا كانت نسبة اسماء التفضيل في العينة التي اخذناها من شعر المتنبي قد بلغت ١٣ ، فاننا اذا ميزنا قسمين من هذه العينة ، قسما يمثل القصائد الاولى ، وقسما يمثل السيفيات ، وجدنا النسبة في القسم الاول تبلغ ١٦ تقريبا وفي القسم الثاني ١٠ . ولعل لهذا الفرق بعض الدلالة ، ولكننا نكتفي في هذا البحث بالنظر الى الظاهرة في مجموع شعر المتنبي .

الظاهرة الثانية التي تسترعي نظرنا في شأن وضع اسم التفضيل ووظيفته عند المتنبي ، هي اقترانه في كثير من الاحيان بالحكمة التي اشتهر بها :

وشبه الشي منجذب اليه ... واشبهنا بدنيانا الطغام
ابلغ ما يطلب النجاح به ... وعند التعمق الزلل
اشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا
وانفس ما في الفتى لبه ... وذو اللب يكره انفاقه
ذل من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش اخف منه الحمام
ومن الخير بطء سيبك عني ... اسرع السحب في المسير الجهام
وما الجمع بين الماء والنار في يدي ... باصعب من اجمع الجد والفهما
اذا فل عزمي عن مدى خوف بعده ... فأبعد شيء ممكن لم يجد عزما

وهذه الامثلة قليل من كثير .

عندنا اذن ظاهرة معنوية وهي الحكمة ، وظاهرة شكلية وهي المطلع ، وظاهرة لغوية وهي اسم التفضيل . وبين الظواهر الثلاثة ترابط مشترك . بمعنى ان استخدام اسم التفضيل ليس هو الصلة الوحيدة بين الظاهرتين الاخريين ، فأبيات الحكمة ، كما لاحظ حازم القرطاجني من قبل ، كثيرا ما تأتي لتنهي فصلا من فصول القصيدة وتمهد لفصل جديد ، ومعنى ذلك ان عندها وقفة تشبه وقفة المطلع . ومن جهة اخرى فان المطلع يحدد مسار القصيدة ، او كما عبر الخطيب القزويني ، ان احسن الابتداءات هو ما ناسب المقصود ، واذا كان المتنبي قد اشتهر بانه شاعر حكيم ، فطبيعي ان تحمل مطالعه هذا الطابع، بمعنى ان يكون المطلع حكمة او على الاقل له مظهر الحكمة ، وصحيح ان اسم التفضيل لا يلتزم في جميع المطالع ولا في اكثرها،وان كثيرامن ابيات الحكمة تخلو من اسم التفضيل ، ولكن الكثرة النسبية لاسم التفضيل في هذين النوعين تدعونا للتساؤل ان كانت ثمة علاقة بين هذه الظواهر الثلاث ، فاذا نجحنا في حل هذه المسألة فاننا نكون قد اقتربنا من فهم وظيفة اسم التفضيل ، او دلالته التعبيرية ، عند المتنبي .

والذي يبدو لنا ان الجامع بين الظواهر الثلاث هو التجريد اما ان الحكمة تقوم على التجريد فظاهر، فالحكمة قول عام يصدق او يدعي صدقه على افراد كثيرة ، فهو اذن معنى مجرد . واما ان ـ المطلع ينطوي على قدر من التجريد ـ عند المتنبي بالذات فلان المتنبي يتوخى ان يحدث في مطالعه نوعا من المفاجأة العقلية :تارة يدعي دعوى عامة تحفز السامع او القارىء اما الى تأييدها واما الى نقضها ، وتارة بان يتعمد شيئا من الابهام او التعقيد في العبارة ليحدث في النفوس قلقلة تحاول التغلب عليه باعمال الفكر في معناها . وهو على الحالين يمهد تمهيدا طيبا للجو العام للقصيدة : جو فكري تبتعد فيه الصور عن دلالاتها المحسوسة لتحلق في جو مزيج من الوهم والفلسفة والخيال .

وصيغة التفضيل تنطوي دائما على شيء من التجريد ، او قل ان التجريد هو اساسها ، حتى حين تخلو من معنى التفضيل وتكتسب المعنى المطلق للصفة على ما لاحظ النحاة . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا ان صيغة التفضيل تحتفظ في هذه الحالة بخاصة التجريد وان خلت من دلالة التفضيل . ذلك ان التعبير بصيغة التفضيل يقتضي تجريد الصفة من موصوفين او اكثر لنمكن الموازنة بينهما ، فحيثما عدل القائل عن الصفة المشبهة الى افعل التفضيل كان المقصود ابعاد الوصف من المعنى المألوف او

المحس ، كما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى : « ربكم اعلم بكم ». فعلمه سبحانه وتعالى لا يشبه العلم المعهود وهذه طريقة من استعمال اسم التفضيل فيها خفاء ودقة ، ويكاد يختص بها القرآن الكريم . على ان للمتنبي من هذا النمط ابياتا قليلة استطاع فيها عن طريق اسم التفضيل ان يوحي بغرابة الصفة ، كقوله في احدى قصائده الشاميات :

فرؤوس الرماح اذهب للغيظ واشفى لغل صدر الحقود

وقوله في شامية اخرى :

والمرء يأمل والحياة شهية والشيب أوقر والشبيبة انزق

وقوله في احدى سيفياته :

لكل امرىء من دهره ما تعودا
وعادات سيف الدولة الطعن في العدا
وان يكذب الارجاف عنه بضده
ويمسي بما تنوي اعاديه اسعدا

فاذا رجعنا الى التراكيب العادية التي يظهر فيها معنى التفضيل لاقتران صيغة بالمفضل منه او المفضل عليه ، ولو كانا مضمرين في الذهن ، لاحظنا ان المتنبي كثيرا ما يتخذ صيغة التفضيل مطية الى الافراط في الصفة بقلب التشبيه كقوله :

اليس عجيبا ان وصفك معجز
وان ظنوني في معاليك تظلع
وانك في ثوب وصدرك فيكما
على انه من ساحة الارض اوسع

او قوله :

ان كان لا يسعى لجود ماجد
الا كذا فالغيث ابخل من سعى

او قوله :

شيم الليالي ان تشكك ناقتي
صدري بها افضى ام البيداء

فكيف يمكن ان تدل صيغة واحدة على المبالغة الكاذبة تارة ، وعلى الحكمة الصادقة — التي اوردنا نماذج منها — تارة اخرى — ؟ يبدو ان العملية الذهنية التي تجري في الحالتين هي التجريد . ولكن الشاعر حين يأتي بالحكمة يجرد صيغة حقيقية من امرين او اكثر ، اما في هذا النوع من المبالغة فانه يجرد من المشبه صفة وهمية يدعي انها اقوى من الصفة الحقيقية في المشبه به . على ان المبالغة في الصفة لا تعتمد دائما على تشبيه مقلوب ، يفاضل الشاعر بين شيئين من جنسين مختلفين مستخدما حرف الجر « من » بل كثيرا ما تأتي باضافة صيغة التفضيل الى اسم الجنس معرفا او منكرا ، جمعا او مفردا ، وهنا لا تأتي المبالغة من ادعاء صفة وهمية ، بل من ادعاء التفوق المطلق في صفة حقيقية :

جاءت باشجع من يسمى واسمح من
اعطى وابلغ من املى ومن كتبا
افرس من تسبح الجياد به وليس الا الحديد امواه

يا اكرم الاكرمين يا ملك الاملاك طرا يا أصيد الصيد
ايا سيف ربك لا خلقه وياذا المكارم لاذا الشطب
وابعد ذي همة همة واعرف ذي رتبة بالرتب
واطعن من مس خطية واضرب من بحسام ضرب
واسعد مشتاق واظفر طالب همام الى تقبيل كفك واصل
وقد كان اسرع فارس في طعنة فرسا ولكن المنية اسرع

وربما كانت المبالغة في ادعاء التدني المطلق ايضا ، كقوله :

اذم الى هذا الزمان اهيله
فاعلمهم قدم واحزمهم وغد
واكرمهم كلب وابصرهم عم
واسهدهم قهد واشجعهم قرد

واقل من ذلك مبالغة ، واقرب منه الى الحكمة :

كفاني اللذم اني رجل
اكرم مال ملكته الكرم
واحب اني لو هويت فراقكم
لفارقته ، والدهر اخبث صاحب
وجدت انفع مال كنت اذخره
ما في السوابق من جري وتقريب

ولا شك ان من اظهر ما يستوقف النظر في شعر المتنبي ذلك التفاوت العجيب بين الحكمة التي تروع بمطابقتها للواقع ، والمبالغة التي تروع ايضا — وربما تنفر — ببعدها عنه . وقد نتساءل : كيف يمكن ان نجد مثل هذا التفاوت لدى شاعر عظيم ، نفترض ان يعبر عن رؤية للحياة فيها قدر من التماسك ؟ ولا يكفي ان نفسر ذلك بأن عصر المتنبي كله كان يميل الى الاسراف في الصنعة ، فهذا لا يفسر الا جانب المبالغة في شعره ، دون جانب الصدق . بل انه ليس بتفسير كاف لجانب المبالغة وحده ، لانه لا يفسر لماذا تميز المتنبي حتى بمقاييس عصره ، وبشهادة نقاد ذلك العصر — بأشراف في المبالغة — والفرض الذي يقدمه هو ان هذين الجانبين المتناقضين يرجعان الى تفسير واحد ، وان هذا التفسير كان — بشكل ما — معبرا عن روح عصر المتنبي بل وعن الروح العربية في عصره وقبل عصره وبعد عصره ، بقدر ما كان المتنبي نتاجا لمن قبله وارهاصا بمن بعده .

اين نلتمس هذا التفسير ؟

علينا ان نلتمسه اولا في شعر المتنبي نفسه .

من اشد مبالغات المتنبي هذا البيت :

فتى الف جزء رأيه في زمانه
اقل جزيء بعضه الرأي اجمع

على ان الذي يسترعي النظر في هذا البيت ليس مجرد المبالغة ، بل استناد المبالغة الى فلسفة . فقد شغل المتكلمون بفكرة « الجزء الذي لا يتجزأ » : فكل جزء يمكن تجزئته الى اجزاء اصغر منه ، وهكذا حتى تكون النهاية هي اصغر جزء يشغل اصغر حيز من المكان . واذا

كان الحد للتناهي ضرورة من ضرورات الوجود الطبيعي (المحدود بالزمان والمكان) فان الحد الاعلى للتناهي ضرورة من ضرورات هذا الوجود ايضا ، وقد قدم فيلسوف العرب ، الكندي ، حول هذه الفكرة دعما فلسفيا للعقيدة الايمانية في التنزيه المطلق . ولكن بقي الاشكال الكبير للفكر العربي والروح العربية هو في سد الفجوة بين الوجود المطلق والوجود الجزئي ، او بعبارة اخرى بين المثال والواقع بعبارة ثالثة بين الروح والمادة . وقد قدمت حلول مختلفة لهذا الاشكال في مجال الدين وفي مجال الفلسفة ، اما المتنبي فقد قدم لنا حله الشعري . واذا كانت الحلول الشعرية لمشكلات الوجود الانساني تتميز بالوثبات الخيالية بدلا من السير المنطقي المنظم ، فان المتنبي كعادة الشعراء يثب فوق هذه الفجوة بين الوجود الجزئي والوجود المطلق ، فيتخيل ان التناهي في الصفة يمكن ان يصل الى الوجود المطلق الذي تنتفي عنده كل حركة ، بل تنتفي الصفة نفسها .

فهو القائل :

تناهى سكون الحسن في حركاتها
فليس لرائي وجهها لم يمت عذر

هذه هي الفكرة التي عبر عنها الشنفرى تعبيرا ساذجا حين قال :

فدقت وجلت واسبكرت واكملت
فلوجن انسان من الحسن جنت

فتحقق الكمال يخرج الموجود عن وجوده الطبيعي، وهو ما عبر عنه الشنفرى بالجنون . وقد كان المتنبي دارسا للفلسفة ، وكان يعلم ان الحركة ـ كالزمان والمكان ـ شرط للوجود الطبيعي ، وان السكون صفة للوجود المطلق ، ولكنه كان ـ كالشنفرى ـ شاعرا يحلم بالكمال المطلق ، فتخيل في هذه المرأة جمالا لا يعرفه البشر ، « يصعق » امامه الرائي لانه المطلق الذي لا يمكن رؤيته .

كان طبيعيا ـ والمتنبي شاعر مادح في عصره لم يعرف الشعر فيه وظيفة سوى المدح ـ ان تنتقل هذه الرؤية الى شعره المدحي . فيقول مثلا :

لم اجر غاية فكري منك في صفة
الا وجدت مداها غاية الابد

او يقول :

وهبك سمحت حتى لاجواد
فكيف علوت حتى لا رفيعا

او يقول :

مكارم لك قت العالمين بها
من يستطيع لامر فائت طلبا

او يقول :

ولست بدون يرتجي الغيث دونه
ولا منتهى الجود الذي خلفه خلف
ولا واحدا في ذا الورى من جماعة
ولا البعض من كل ولكنك الضعف
ولاالضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه
ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله الف

او يقول :

فعجبت حتى ما عجبت من الظبا
باحسن حتى ما رأيت من السنا

او يقول :

تجاوز قدر المدح حتى كأنه
باحسن ما يثنى عليه يعاب

او يقول :

فقد بلغت غاية الامال فلم تدع منها سوى المحال
في لا مكان عند لا منال

هكذا يدخل بنا « افعل التفضيل » الى قلب فلسفة المتنبي او رؤيته للوجود . فليس التجريد الذي عرفناه في ابياته الحكيمة الا اقترابا ، على نحو ما ، من المطلق، ولكنه اقتراب اذا اشتد امكن ان يفش نظر الشاعر الذي الف الجزئي وامن بسلطان الحواس ، فيرتكب مبالغات لا يقبلها العقل (وصف الشنفرى الكمال بالجنون) . والمتنبي يعبر في هذا الصراع ـ مأساة العقل الذي يقتل نفسه ـ عن اشكالية عصره :

ذلك العصر الذي تباعد فيه واقع العرب عند مثلهم تباعدا مخيفا . غير انه ما كان ليصدق التعبير عنها لو لم يكن قد عاشها بكل كيانه . فهو القائل في غرور الصبا :

امط عنك تشبيهي بما وكأنه فما احد فوقي ولااحدمثلي

والقائل

اي محل ارتقي اي عظيم اتقى
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

والقائل :

ان اكن معجبا فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد

وهو القائل في نضج الكهولة :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحدّه
يرى جسمه يكسى شفوقا تربه فيختار ان يكسى دروعا تهده
يكلفني التهجير في كل مهمه عليقي مراعيه وزادي زبده

والقائل :

يا ساقيي أخمر في كئوسكما ام في كئوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا؟ مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الاغاريد
اذا اردت كميت اللون صافية وجدتها وحبيب النفس مفقود

كان طموح المتنبي من ذلك النوع الذي لا يرحم صاحبه . كان تعلقا بالمستحيل ، ولست اشك انه لو انيل ما تمناه من الامارة لعافتها نفسه بعد قليل . فقد كانت عظمة روحه بقدر فساد زمانه . لا جرم ان صار شاعر العربية الاعظم ، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس .

القاهرة